المحورالأول: تحليل الخطاب مدخل مفاهيمي

شكّل "تحليل الخطاب" كمجموعة من الإجراءات، محور نقاش واسع منذ عقود، ولا زال مستمرا إلى وقتنا هذا، ويعود سبب ذلك إلى رغبة الباحثين والنقاد والمحللين في الوصول إلى علم ينظر في الأبعاد الحقيقية لما ينتجه الإنسان من خطابات مهما تنوعت واختلفت. وقد ارتبطت اللّسانيات بهذا الموضوع، باعتبارها تدرس اللّغة الّتي تشكل وعاء الإنتاج الفكري والأدبي والسياسي الإنساني.

كان اللّساني الأمريكي ز. هاريس Z.Harris أوّل من وضع مصطلح "تحليل الخطاب"، وغايته في ذلك السّعي نحو صياغة مجموعة من الإجراءات الشّكلية من أجل تحليل الإنتاج الكلامي: المكتوب منه والمنطوق.

ثمّ ظهرت هناك توجّهات كبرى تسعى إلى تحليل الخطاب بمنطلقات مختلفة ومتباينة، منها ما يسمى بالمدرسة الفرنسية في تحليل الخطاب، ومنها أيضا المدرسة الأنجلوسكسونية. وتفرعت عن هاتين المدرستين توجهات كثيرة، تلتقي وتتباين أحيانا، وتختلف وتتناقض أحيانا أخرى.

قبل أن نعرض باختصار لبعض التّوجهات النّظرية لتحليل الخطاب، ارتأينا أن نحدّد بعض المفاهيم الأساسية في هذا المجال:

- **الخطاب:**

عرف هذا المصطلح اضطرابا نظرا لارتباطه بتصوّرات مختلفة للغة، انعكست على تحديده، إذ هناك من يربطه بالنّص، وهناك كذلك من يربطه بالملفوظ وهناك من يميزه عن اللّغة الّتي تشكل نظاما لمجموعة من القيم المفترضة، وهو بذلك استخدام للغة ضمن سياق خاص، وهو التّحديد الّذي يقترب من تمييز **دوسوسير De Saussure** بين اللّغة والكلام، وفي هذا يقول **ج. ديبوا J.Dubois** في تعريفه للخطاب على أنّه: "هو اللّغة أثناء استعمالها، إنّها اللّسان المسند إلى الذات المتكلمة"، فهو بذلك مرادف للكلام "بالمفهوم السّوسيري".

هناك من يرى في الخطاب نفسه، أنّه إذا كانت اللّغة هي نظام تشترك فيه مجموعة لغوية ما، فإنّ – على عكس ذلك – هو استعمال محصور لهذا التنظيم. كأن نتحدّث عن الخطاب الإسلاموي أو الاشتراكي...

قد نقصد به، في نفس هذا الإطار، نوع الخطاب "الصّحفي، الإداري..."، ونعني به أيضا الإنتاجات الكلامية الخاصّة بمجموعة من المتكلمين "خطاب الممرضات، خطاب الشّباب..."، أخيرا، نقصد به أيضا وظائف الكلام "الخطاب السّجالي، التّعاليمي..."

- **تحليل الخطاب:**

يعرّف **جورج مونان** تحليل الخطاب بأنّه: "كلّ تقنية تسعى إلى التّأسيس العام والشكلي للرّوابط الموجودة بين الوحدات اللّغوية للخطاب المنطوق أو المكتوب، في مستوى أعلى من مستوى الجملة"، هذا الإقرار بوجود مستوى – من النّاحية الإجرائية – أعلى من مستوى الجملة، هو الّذي فتح المجال لتعريفات أخرى أخذت بعين الاعتبار العناصر الخارجية غير اللّغوية، وهو الأمر الّذي أحدث تذبذبا في المفهوم، كما أشرنا إلى ذلك سابقا، إلاّ أنه تمكن من أن يدرك الأبعاد الحقيقية للإنتاج الكلامي الّذي لا يخضع في الكثير من الأحايين إلى عراقيل النّظام اللّغوي كما حدّده دوسوسير.

وقد حدّد **جان ديبوا** هذا المفهوم في معجمه، معتبرا إياه جزءا من اللّسانيات يحدّد القواعد الّتي تقود إنتاج تتابع من الجمل المبنية.

انطلاقا من هذا التصور، اتّسع مجال البحث اللّساني ليشمل أبعدا عدة، لم تكن تؤخذ بعين الاعتبار في البحث اللّساني البنيوي، فقد صارت شروط انتاج الملفوظ عناصر جديرة بالدراسة، وصارت الأنماط التعبيرية المختلفة للغة، كونها حوارا أو محادثة أو نصا مبنينا على شكل فقرات ومقاطع، مواضيع جديرة بالدراسة، وصار ينظر إلى اللّغة كونها أفعالا ذات أبعاد ووظائف اجتماعية ومؤسساتية، وتمت معرفة القوانين الخطابية الّتي تتحكم في كلّ ما يتلفظ به الإنسان من ملفوظ، ولم يعد الحديث، بناء على ذلك، عن مستوى واحد للغة، وهو المستوى الشكلي والمصرح به، بل هناك المستوى الإضماري الّذي تتم معرفته بتوسل بعض عناصر اللّغة ممزوجة بعنصر من السياق المتعدد الأبعاد.

- **لسانيات الخطاب:**

ظهر مصطلح "لسانيات الخطاب"، الّذي يشير إلى أسلوب آخر في إدراك اللّغة. لعبت التّداولية، باختلاف فروعها، دورا أساسا في تغيير النّظرة إلى اللّغة، وتدعّم هذا التوجّه بمجموعة من الأفكارمنها:

إنّ الخطاب هو تنظيم مجاوز للجملة، معنى ذلك أنّه ليس تتابعا لمجموعة من الكلمات، بل هناك بنى يخضع لها، تتجاوز بنى الجملة، فعبارة "**ممنوع التّدخين**" تعتبر خطابا، رغم عدم استيفائها لشروط الجملة، فهو موجّه نحو غاية معينة ويحدث أن ينحرف عن تلك الغاية نحو غايات أخرى، ثمّ يعود إلى غايته الأصلية، مثل: كان عليّ أن أقول هذا...، أو سأعود إلى الحديث عن هذه النّقطة... وهو كلّ ما من شأنه أن يوجه كلام المتكلم. نجد ذاك كثيرا في الحوارات والمحادثات.

إنّه نمط من الأفعال: إذ هناك من يرى أن اللّغة هي أقوال تتحول إلى أفعال مختلفة باختلاف السّياقات الّتي ترد فيها. وقد تدعم هذا التوجّه بنظرية الأفعال الكلامية الّتي طوّرها **أوستين وسيرل**.

الخطاب تفاعل يتجلى في المحادثات الّتي يسعى فيها أصحابها إلى التّنسيق بين مختلف ملفوظاتهم أثناء تحاورهم. ويشمل هذا النّمط الخطابي كلّ ما يصدر عن المتكلم من خطاب، أحضر المستمع فيه أو لم يحضر، كالمحاضرات، والخطابات والسّياسة...

لا يكون الخطاب خطابا إلاّ إذا تبنته هيأة تشكل محور المعالم الزّمانية، والمكانية والشخصية، وتشير إلى موقفها تجاه ما تقوله، أو أن تسند مسؤولية هذا الأخير إلى الغير. ومن بين ما يتضمنه هذا التوجّه، الدّراسات الّتي أجريت على العناصر الذاتية الكامنة في اللّغة.

يخضع الخطاب لمجموعة من المعايير الاجتماعية والأخلاقية، تتكفل قوانين الخطاب بتبيانها، فالأفعال الكلامية كالأمر والوعد والنهي... لا يمكن لها أن تصدر دون الخضوع لمعايير حدّدتها الأخلاق والقيم الاجتماعية والثقافية والدينية.

أخيرا، لا يؤول الخطاب إلاّ بإدراجه في خطابات أخرى، فلكل نوع خطابي أسلوبه في التّكفل بتسيير مختلف العلاقات التّخاطبية. إنّ تأويل أي خطاب من أي نوع كان، يقتضي ربطه أو مقابلته بخطابات لأنواع خطابية أخرى.